﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩﴾ [هود: 9]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الاستدلالُ على سوءِ طبائعِ الكافرينَ، واستحقاقِهِمُ العذابَ المهينَ، بيأسِهِمُ المَاثِلِ، وكفرِهِمُ الحاصلِ

لمّا أخبرَ الله تعالى أنَّ الابتلاءَ لِكلِّ المُكلَّفينَ، وبيَّنَ ما يقعُ مع الكافرينَ، بيَّنَ في هذهِ الآياتِ الثّلاثِ حالَ الإنسانِ في اختبارِ اللهِ لهُ؛ لِينتقلَ مِنَ الخصوصِ إلى العُمومِ، ولِيكونَ كالدّليلِ على سُوءِ طبائعِ الكافرينَ بما جُبِلوا عليهِ مِن كفرِهِم بنعماءِ اللهِ، وعلى استحقاقِهِمُ العذابَ، إذِ استَعجلوهُ استهزاءً منهُم بعدَ أنْ أخّرَهُ اللهُ تعالى[1].

كما أنّ هذه الآيةَ عَطفٌ على جملةِ ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾؛ فإنَّه لمّا ذَكَرَ تعالى عنِ المُشركينَ أنَّ مَا هُم فيه مَتاعٌ إلى أجَلٍ مَعلومٍ عندَهُ، وأنَّهُم بَطِروا نعمةَ التَّمتيعِ، فَسَخِروا بتأخيرِ العذابِ؛ بَيَّنَت هذه الآيةُ أنَّ أهلَ الضَّلالةِ راسِخونَ في ذلكَ؛ لأنَّهُم لا يفكِّرونَ في غيرِ اللَّذّاتِ الدُّنيويَّةِ، فَتجري انفعالاتُهُم على حَسبِ ذلك دونَ رجاءٍ لِتَغَيُّرِ الحالِ، ولا يَتفكَّرونَ في أسبابِ النَّعيمِ والبُؤسِ، وتصَرُّفاتِ خالقِ النّاسِ، ومُقَدِّرِ أحوالِهِم، ولا يتَّعِظونَ بِتقَلُّباتِ أحوالِ الأمَمِ، فَشَأنُ أهلِ الضَّلالةِ أنَّهُم إنْ حَلَّت بهِمُ الضَّراءُ بعدَ النِّعمةِ مَلَكَهُمُ اليأسُ مِنَ الخيرِ، ونَسُوا النِّعمةَ فَجَحَدوها وكَفَروا مُنعِمَها، فإنَّ تأخيرَ العذابِ رَحمةٌ، وإتيانَ العذابِ نَزعٌ لتلك الرَّحمةِ[2].

كما أنّ إذاقةَ النَّعماءِ ومِساسَ الضّرّاءِ فصلٌ من بابِ الابتلاءِ واقعٌ مَوقِعَ التّفصيلِ مِنَ الإجمالِ الواقعِ في قولِهِ تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/321، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/127، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/24.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/12.

﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ والمعنى: أنَّ كلاًّ مِن إذاقةِ النَّعماءِ ونزعِها مع كونِهِ ابتلاءً لِلإنسانِ أيشكُرُ أم يكفُرُ لا يَهتدي إلى حسنِ الصّوابِ، بل يحيدُ في كلتا الحالتين عنه إلى مَهاوي الضّلالِ، فلا يَظهرُ منهُ حسنُ عملٍ إلّا مِنَ الصّابرينَ الصّالحينَ، أو مِن حيثُ إنّ إنكارَهُم بالبعثِ واستهزاءَهُم بالعذابِ بسببِ بَطرِهم وفخرِهم، كأنّهُ قِيلَ: إنّما فعلُوا ما فعلُوا لأنّ طبيعةَ الإنسانِ مَجبولةٌ على ذلك، وهذه المناسبةُ تشمَلُ الآياتِ الثّلاثَ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَذَقْنَا﴾: الذَّواقُ والمَذاقُ مَصدران للفعلين ذاقَ يذوقُ، ويكونانِ طَعْمًا، ويدورُ أصلُ الكلمةِ على اختبارِ الشَّيءِ مِن جِهَةِ تَطَعُّمِ بالفمِ، وأصلُهُ فيما يَقِلُّ تناوُلُهُ دونَ ما يَكثُرُ، فإنّ ما يَكثُرُ منهُ يُقالُ لهُ الأكلُ، ويُقالُ: ذُقتُ المأكولَ فوجدتُهُ طيِّبًا، ومِنَ المجازِ ذُقتُ ما عندَ فلانٍ؛ أي: اختبرتُهُ، وكُلُّ ما نَزَلَ بإنسانٍ مِن مَكروهٍ فقد ذاقَهُ، وأمرٌ مُستَذاقٌ؛ أي: مُجَرَّبٌ مَعلُومٌ، ويُستَعملُ الذّوقُ مجازًا فِيما يُكرَه، ويُحمَدُ، كما أنَّ الطّعمَ قد يكونُ حلوًا، وقد يكونُ مرًّا، ومعظمُ ما جاءَ في القرآنِ مِنَ التّركيبِ (ذوق) مجازيٌّ، ويتأتّى مِنَ الإحساسِ بالطّعمِ معرفةُ الأمرِ اختبارًا وتجربةً[2].

2) ﴿نَزَعْنَاهَا﴾: أصلُ النَّزعِ الجَذبُ والقَلعُ بقوّةٍ، ويدورُ معنى النّزعِ على اقتلاعِ شيءٍ خارجٍ عن مَقرِّهِ بجَذبٍ قويٍّ ممّا يلتحمُ به، أو يكونُ مُلتصقًا به، ومنهُ قولُهُم: نزَعَ بِيَدِهِ: إذا استَقَى بدَلوٍ عُلِّقَ فيها الرِّشاءُ، ونزَعَ القوسَ إذا جذَبَها، ونَزَعَ الشّيءَ؛ أي: قلعَهُ مِن مَقرِّهِ وجَذبَهُ، ونزعَ الشّيءَ مِن فلانٍ سلبَهُ بعدَ أن كانَ مُتمسِّكًا فيه، ومنه: نزعُ الملائكةِ الأرواحَ مِنَ الأبدانِ، والتَّنازُعُ والمُنازَعَةُ: المُجاذَبَة، بأن يريدَ كلُّ واحدٍ أن يقتلعَ أمرًا مِن يدِ صاحبِهِ[3].

3) ﴿لَيَئُوسٌ﴾: اليَأسُ: قَطعُ الرَّجاءِ وانتفاءُ الطّمعِ، ويُقالُ: هو القُنوطُ، و(يَئُوسٌ) على وزن (فَعولٌ) صيغةُ مبالغةٍ مِن (يئس) إذا كانَ كثيرَ اليأسِ[4].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/190.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذوق).

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نزع).

(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (يأس).

4) ﴿كَفُورٌ﴾: يدورُ معنى الكفرِ على تغطيةٍ تامّةٍ كثيفةٍ لا يظهرُ معها شيءٌ مِنَ المُغطَّى، وكَفَرَ النِّعمَةَ وبالنِّعمَةِ أيضًا جَحَدَها؛ أي: أنكرَها وغطَّاها بجحودِهِ، أو تغطَّى عنها كأنَّها غيرُ مَوجودةٍ، فاللّفظُ مُستَعارٌ مِن كَفَرَ الشَّيءَ إذا غَطّاهُ، وهو أصلُ البابِ. والفرقُ بينَ الكُفرِ باللّه والكُفرِ بالنّعمةِ هو أنَّ الكُفرَ الّذي هو ضدُّ الإيمانِ يتعدَّى بالباءِ، فيُقالُ: كَفَرَ باللّه تعالى. والكفرُ الّذي هو ضِدُّ الشُّكرِ يتعدَّى بنفسِهِ، فيُقالُ كفرَ النّعمةَ وكفرَ المُنعِمَ، و﴿كَفُورٌ﴾ صيغةُ مبالغةٍ بمعنى المبالغِ في كفرانِ نعمةِ اللّه وعدمِ شكرِها[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تقبيحُ تمرُّدِ الإنسانِ وطغيانِهِ، عندَ سَلبِ النّعمةِ منهُ بيأسِهِ وكفرانِهِ

ولَئِن أعطينا الإنسانَ منّا نعمةً مِن صحَّةٍ وأمنٍ وسعةٍ في العيشِ، ثم سَلبْناها منهُ، إنَّهُ لَشديدُ اليأسِ مِن رحمةِ اللّه، ومِن أن تعودَ إليه مثلُ تلك النّعمةِ المسلوبةِ، جَحودٌ بالنِّعم الّتي أنعمَ اللّه بها عليهِ[2].

بطرُ النّعمةِ عادةٌ مُتأصّلةٌ في أهلِ الضّلالِ والمفاسدِ الحاصِلةِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواو في: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا﴾:

الواو عطفٌ على جملةِ ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا﴾، فإنّه لمّا ذَكَرَ أنّ ما هُم فيهِ متاعٌ إلى أجلٍ مَعلومٍ عندَ اللّه، وأنّهُم بطروا نعمةَ التّمتيعِ، فَسخروا بتأخيرِ العذابِ، بيّنَتِ الآيةُ الكريمةُ رسوخَ أهلِ الضّلالِ في ذلكَ، وكأنّهُ مِن بابِ عطفِ العامِّ على الخاصِّ تأكيدًا على ما عليهِ الحال خاصًّا وعامًّا، وفي ذلك تأكيدُ ما عليه عادة أهلِ الضّلالةِ مِن بطرِ النّعمةِ، فالجملةُ في قوّةِ التّذييلِ لِمَا مَضى.

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بأسلوبِ القسمِ ﴿وَلَئِنْ﴾:

اللّامُ مُوطِئَةٌ لِلقسمِ، والغرضُ مِنَ التّعبيرِ بأسلوبِ القسمِ تأكيدُ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كفر)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 763.

(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 222.

حصولِ جوابِهِ ووقوعِهِ على وجهِ اليقين، وهو آيةٌ على غضبِ اللّه على هذا الإنسانِ الجاحدِ نعمتَهُ، فهو إعلانُ مُغاضَبةٍ، وتأكيدٌ على حصولِ الجوابِ المُوقِعِ لِلعذابِ.

القَسمُ مُغاضبةٌ مِنَ اللهِ لِجاحدي نعمِهِ، والمحاربين دينَهُ في كلِّ اتّجاهٍ

دلالةُ تتابعِ التّأكيدِ:

تتابَعَ التّأكيدُ في جملةِ الشّرطِ والجزاءِ في الآيةِ، فورد تأكيدُ الجملةِ باللّامِ الموطِّئةِ للقَسَمِ على معنى (واللّه إنْ) في ﴿وَلَئِنْ﴾، وبـ ﴿وَلَئِنْ﴾ واللّامِ في جُملةِ جوابِ القَسَمِ المغني عن جوابِ الشّرطِ في قولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ﴾؛ لِقصدِ تحقيقِ مَضمونِ جملةِ الشّرطِ والجزاءِ، وأنَّ الأمرَ حقيقةٌ ثابتةٌ، لا مُبالَغةَ فيها، ولا تَغليبَ، فإنَّ كلَّ أحدٍ يُنكِرُ أن يكونَ طبعُهُ كذلكَ، فالكلامُ على طريقةِ الخبرِ الإنكاريِّ[1].

يأسُ الكافرِ وكفرانُهُ عندَ سلبِ النّعمةِ، حقيقةٌ ثابتةٌ بلا منّةٍ

بلاغةُ مجيءِ الجملةِ الشّرطيّةِ مُصدّرةً بـ ﴿وَلَئِنْ﴾:

أفادَ التّعبيرُ بـ ﴿وَلَئِنْ﴾ الشّرطيّةِ أنَّ يأسَ الإنسانِ وكفرَهُ النّعمةَ يجبُ أن لا يكونَ إلّا على مُجرَّدِ الفرضِ والتقديرِ، كما تفرضُ المحالاتُ؛ لاشتمالِ المَقامِ على ما يزيلُهُ، ويقلعُهُ من أصلِهِ، وهو أنَّه وَقَعَ للاختبارِ، ولِيُظهرَ لكُم أيُّكُم أحسنُ عملًا، ففيهِ توبيخٌ لِمَن ييأسُ ويكفرُ نعمةَ اللّه وتبكيتٌ له؛ لعدمِ صبرِهِ على سلبِ النّعمةِ وانتفاءِ ثقتِهِ باللّه تعالى[2].

سلبُ النّعمةِ للاختبارِ، والنّظرُ فيما يترتّبُ عن طغيانِ الكُفّارِ

كما أفادَ التّعبيرُ بكلمةِ الشكِّ ﴿وَلَئِنْ﴾ أنَّ إذاقةَ الإنسانِ الرّحمةَ، ثمّ نزعَها منهُ؛ أي: من حيثُ وقوعُها في نفسِ الأمرِ، تحتملُ أن تقعَ في المُستقبلِ، وأنْ لا تقعَ، فيحتملُ بقاءَ الرّحمةِ ويحتملُ نزعَها[3].

سرُّ تقييدِ الإذاقةِ بالرّحمةِ:

لمّا كانتِ الرّحمةُ النّعمةَ مُطلَقًا، فتَعُمُّ جميعَ ما يُنتفَعُ بهِ من

الرّحمةُ لا تكونُ إلّا نعمةً مَرغوبةً، والتّمسّكُ بها سنّةٌ مَطلوبةٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/3، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/13.
(2) التّفتازانيّ، المطوّل، ص: 321.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/31.

مَطعومٍ وغيرِهِ؛ أي: مِن مَلبوسٍ وصحّةٍ وأمنٍ وجاهٍ وغيرِ ذلك، وكانَ الذّوقُ بمعنى اختبارِ طعمِ المَطعومِ باللّسانِ مُلائمًا كانَ أو غيرَ مُلائمٍ، كانَ تقييدُ الإذاقةِ بالرّحمةِ على المعنى الأخصِّ للإذاقة؛ أي: مايُلائمُ ويُستَلَذُّ منه، والمعنى الأعمِّ للرّحمةِ، والمعنى: لَئِن أعطيناهُ نعمةً بحيثُ يجدُ لذَّتَها[1].

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿أَذَقْنَا﴾:

الدُّنيا قَليلَةٌ، والحاصِلُ مِنها قَليلٌ، والإذاقَةُ مِنَ القليل قَليلٌ

عُبِّرَ بلَفظِ ﴿أَذَقْنَا﴾ لِيفيدَ أنَّهُم قد أدركُوا ما يحبّونَهُ وما يَشتهونَهُ ويريدونَهُ؛ لأنَّ الإنسانَ لا يَذوقُ إلّا ما يَشتَهيه، ولهذا لم يقُلْ هنا: (وإذا أنعمْنا)، فإنَّه يجوزُ أن تكونَ نعمَةً لا تُشتَهى، أو لم تُطْلَبْ[2]، ولمّا كانَ لفظُ الإذاقةِ يُطلَقُ على أقلّ ما يُوجَدُ بِهِ الطَّعمُ، دلَّ على أنَّ الإنسانَ بوجدانِ أقلِّ القَليلِ مِنَ الخيراتِ العاجِلَةِ يَقَعُ في التَّمَرُّدِ والطُّغيانِ، وبإدراكِ أقَلِّ القَليلِ مِنَ المِحنَةِ والبَلِيَّةِ يقعُ في اليَأسِ والقُنوطِ والكُفرانِ.

وفائدةُ التّعبيرِ بهذا: الإيذانُ بأنَّ الدُّنيا في نَفسِها قَليلَةٌ، والحاصِلَ مِنها للإنسانِ الواحِدِ قَليلٌ، والإذاقَةَ مِن ذَلِكَ المِقدارِ خَيرٌ قَليلٌ، ثُمَّ إنَّهُ في سُرعَةِ الزَّوالِ يُشبِهُ أحلامَ النّائمينَ وخَيالاتِ المُوَسوَسينَ، فهذهِ الإذاقةُ مِن قَليلٍ، ومع ذَلِكَ فإنَّ الإنسانَ لا طاقَةَ لَهُ بتَحَمُّلِها، ولا صَبرَ لَهُ على الإتيانِ بالطَّريقِ الحَسَنِ مَعَها[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿أَذَقْنَا﴾:

إفادةُ لفظِ الإذاقةِ إعطاءُ النِّعمةِ، ووِجدانُ لذّتِها

جاءَ لفظُ ﴿أَذَقْنَا﴾ على الاستعارةِ التّصريحيَّةِ التّبعيَّةِ، بتشبيهِ الإعطاءِ المُشتَمِلِ على إدراكِ أثرِ النّعمةِ مِنَ الطّعامِ والمَلبَسِ والصّحّةِ وغيرِها مِن سائرِ المحسوساتِ، بحيث يجدُ لذَّتَها بذوقِ

(1) الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/76.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 197، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/12.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/322.

ما يُؤكَلُ ممّا يُشتهَى ويُرغَبُ فيه، ووجهُ الشّبهِ تحصيلُ الشّيءِ والانتفاعُ بهِ على وجهِ حصولِ تمامِ المقصودِ منهُ، فإنَّ وجدانَ اللّذّةِ كما يترتَّبُ على الإذاقةِ يترتَّبُ على الإعطاءِ المذكورِ، فأفادَ التّعبيرُ بلفظِ الإذاقةِ إعطاءَ النّعمةِ من صحّةٍ وأمنٍ وجِدَةٍ وغيرِها، وإيصالَها إليهِ، فينتفعُ من كلِّ نوعٍ من أنواعِ النّعمِ تمامَ الانتفاعِ، بحيثُ يجدُ فائدتَهُ ولذَّتَهُ منهُ[1].

دلالةُ (اللّام) في لفظِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

تنوُّعُ دلالةِ (أل) فيه توسيعٌ لِلمَعنى

الظّاهرُ أنَّ (أل) هنا للجنسِ، والمرادُ هو جنسُ الإنسانِ، فيدخلُ فيه المُؤمنُ والكافرُ، وهو قولُ جمهورِ المُفسِّرينَ، ودليلُهُم أنَّهُ تعالى استثنى منهُ قولَهُ فيما يأتي: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والاستثناءُ يُخرِجُ من الكلامِ ما لولاهُ لدَخَلَ؛ والمعنى: أنَّ هذا الخَلقَ في سجيَّةِ النّاسِ وطبعِهم، ثمّ استثنى منهُمُ الّذين صبروا وعملوا الصّالحاتِ. وذهبَ آخرونَ إلى أنَّ (أل) هنا عهديّةٌ، والمرادُ الكافرُ؛ لأنَّ الصِّفاتِ المَذكورَةَ للإنسانِ في هذهِ الآيةِ لا تَليقُ إلّا بالكافرِ؛ لأنَّهُ وَصَفَهُ بكَونِهِ يؤوسًا كَفورًا، ووَصَفَهُ أيضًا بأنَّهُ عندَ وِجدانِ الرّاحَةِ يقولُ: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾، وسيأتي فائدةُ الفرقِ بينَ الوجهين عندَ قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[2].

سرُّ القيدِ بشبهِ الجملةِ في: ﴿مِنَّا﴾:

رحمةُ اللهِ للعبادِ مَحضُ فضلٍ وإنعامٍ لا مناطَ استحقاقٍ للأنامِ

لِبيانِ أنَّ الرّحمةَ ابتدأت منه ﷻ بمحضِ الفضلِ والإنعامِ لا باستحقاقِ الأنامِ، وللإشعارِ بأنَّها عَواريُ من اللهِ يمنَحُها مَن شاءَ من عِبادِهِ، فتقديمُ الصِّلةِ ﴿مِنَّا﴾ دليلٌ على العاريَةِ[3].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/153.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/41، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/381، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/322.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/242، والخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/76، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/30.

غرضُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿مِنَّا﴾ على المفعولِ بهِ الثّاني ﴿رَحْمَةً﴾:

التّقديمُ يفيدُ العنايةَ والاهتمامَ بمَن تكونُ منهُ الرّحمةُ سبحانه فالعِبرَةُ ليسَت بالرّحمةِ، ولكنّ العِبرَةَ بمَن تكونُ منهُ الرّحمةُ، إذِ العطايا على قَدرِ مُعطِيها.

العِبرَةُ بمَن تكونُ منهُ الرّحمةُ، فيكونُ منهُ انهمالُ النّعمةِ

الغرضُ مِنَ التّنكيرِ في لفظِ ﴿رَحْمَةً﴾:

لمّا كانَ لفظُ ﴿رَحْمَةً﴾ نكرةً في سياقِ الشّرطِ دلَّ على عُمومِ الرّحمةِ على البدلِ أو على اجتماعِ بعضِها؛ لِيشمَلَ أنواعَها، وقليلَها وكثيرَها، وصغيرَها وكبيرَها، فأفادَ تنكيرُها قصدَ النّوعِ للنّظرِ إلى لفظِ الإذاقةِ[1]؛ لأنَّ تنوُّعَ أفرادِ الرّحمةِ يحصُلُ منها تمامُ الإذاقةِ.

تنوُّعُ أفرادِ الرّحمةِ يحصُلُ منه تمامُ الإذاقةِ

فائدةُ التّعبيرِ بـ ﴿ثُمَّ﴾:

أفادَ التّعبيرُ بالحرفِ ﴿ثُمَّ﴾ أنَّ نزعَ الرّحمةِ قد تراخى عن ذوقِها، وأنَّها قد بقيَت عندَهُ مُدّةً مِنَ الزّمنِ؛ لِيظهرَ أمرُ الابتلاءِ والامتحانِ في الصّبرِ على فُقدانِها، والشّكرِ على إذاقتِها.

التّراخي في نزعِ الرّحمةِ بابٌ مِنَ الامتحانِ والابتلاءِ

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي في: ﴿نَزَعْنَاهَا﴾:

عَبَّرَ بالماضي لِلدّلالةِ على تحقُّقِ نزعِ النّعمةِ عندَ عدمِ القيامِ بحقِّها، مع شدّةِ استمساكِ المُنعَمِ عليهِ بالنّعمةِ وتَعلُّقِهِ بها.

نزعُ النّعمةِ لا يدفعُهُ استمساكُ المُنعَمِ عليهِ بها

سببُ نسبةِ الفعلِ إلى (نا) المتكلِّمِ في: ﴿نَزَعْنَاهَا﴾:

أشعرَ التّعبيرُ بـ ﴿نَزَعْنَاهَا﴾ أنَّ نزعَها بأمرِ اللّه، وفيه توبيخُ اليؤوسِ الكفورِ؛ لأنَّه لم يثِقْ باللّه، ولم يَصبِرْ على هذا الاختبارِ مع أنَّ اللّه تعالى نسبَ النّزعَ إليهِ، ومعنى الكلامِ: ثمّ نزعْناها منهُ بما يَحدُثُ مِنَ الأسبابِ بمُقتَضَى سُنَّتِنا في الخَلقِ مِن مَرَضٍ وعُسرٍ وفِتَنٍ ومَوتٍ وغيرِها[2]، ولمّا لم يكنْ مُقابلُ النّزعِ أيَّ مَسٍّ للإنسانِ بضُرٍّ، بلِ

نزعُ النّعمةِ بأمرِ اللهِ بما يحدثُ مِنَ الأسبابِ بمُقتضَى سنَّةِ اللهِ بلا ارتيابٍ

(1) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 239.
(2) رضا، تفسير المنار: 12/24.

اكتفَى بنزعِ الرّحمةِ كانَ وقوعُ جزاءِ الشّرطِ بأنَّه يَؤوسٌ كفورٌ تَعجيبًا لحالِهِ، ولِقلَّةِ صبرِهِ، وكثرةِ جزعِهِ.

دلالةُ (مِنْ):

تحتملُ (مِنْ) في قولِهِ تعالى: ﴿مِنْهُ﴾ أن تكونَ تعليليَّةً؛ لِلتَّنبيهِ على أنَّ سببَ نزعِ الرّحمةِ مِنَ الإنسانِ شؤمُ مَعاصيهِ، وعدمُ الإقامةِ على شكرِها، فالأمرُ عائدٌ إلى سوءِ طبعِهِ، فنيلُ الإنسانِ الرّحمةَ بفضلِ اللّه ونزعُها منه بقبحِ أفعالِه وسوئِها، ويدلُّ عليه آياتٌ مِنَ القرآنِ الكريمِ، منها: قولُهُ تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النّساء: 79]. كما تحتملُ أن تكونَ ابتدائيَّةً؛ أي: صلةً للفعل ﴿نَزَعْنَاهَا﴾؛ بمعنى: أنَّ ابتداءَ نزعِ الرّحمةِ كانَ مِنَ الإنسانِ الّذي أذقناهُ تلك الرّحمةَ[1].

يَنالُ الإنسانُ الرّحمةَ بفضلِ اللهِ، وتُنزَعُ منهُ بقبحِ الأفعالِ والسّفاهِ

دلالةُ التّأكيدِ بـ ﴿وَلَئِن﴾:

لمّا جاءَ حرفُ التّأكيدِ ﴿وَلَئِنْ﴾ في صدرِ جملةِ الجزاءِ كانَ بمثابةِ التّنبيهِ إلى أنَّ النّزعَ بسَببِ كُفرانِهم بما كانوا يتَقلَّبونَ فيه مِن نِعَمِ اللّه ﷻ[2].

نَزعُ الرّحمةِ سَببُهُ كُفرانُ نِعَمِ اللهِ مِنَ المالِ والولدِ والجاهِ

بديعُ الاستعمالِ وبيانُهُ في: ﴿إِنَّهُۥ﴾:

لمّا كانَ الظّاهرُ أنَّهُ قد قَصَدَ مِن ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الجنسَ بمعنى عمومِ النّاسِ؛ ليشمَلَ المؤمنَ والكافرَ والصّابرَ وغيرَهُ، وكانَ اليَؤوسُ الكَفُورُ نوعًا مِنَ الإنسانِ دلَّ على أنَّهُ قد وَقَعَ استخدامٌ في عَوْدِ الضّميرِ[3]، إذ عادَ الضّميرُ على نوعٍ منهُ، وهو الّذي لا يصبرُ ولا يَشكرُ، وفائدةُ استخدامِ لفظِ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الّذي استُعمِلَ في مَعنيين: أحدهما بما يدُلُّ عليه ظاهرُ اللّفظِ، والثّاني بما دلَّ عليه الضّميرُ العائدُ إليه؛

التّوبيخُ والتّبكيتُ لليؤوسِ الكفورِ، مِنَ النّوعِ المذكورِ

(1) الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/76، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/30.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/190.
(3) التّفتازانيّ، المطوّل، ص: 653، والسّبكيّ، عروس الأفراح: 2/246، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 140.

الإشعارُ بأنَّ ما يَقَعُ للَّفظِ الأوّلِ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾، وهو إذاقةُ الرّحمةِ، ثمّ نزعُها منه هُو مِن فعلِ اللّه تعالى، وإنّما التّوبيخُ والتّبكيتُ لِليؤوسِ الكفورِ، ويَدخلُ فيه الكافرُ باللّه إن كانَ يَؤوسًا كفورًا لِنعمةِ اللّه دخولًا أوّليًّا.

سرُّ مجيءِ ﴿لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾ جوابًا مُغنيًا عن جوابِ الشّرطِ:

لمّا كانَ قولُهُ: ﴿لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾ جوابًا لِلقسمِ، وهو سادٌّ مَسدَّ جوابِ الشّرطِ[1]، فيكونُ جوابُ القسمِ هو جزاءَ الشّرطِ في المعنى، فكانَ قولُهُ: ﴿لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾؛ بمعنى أنَّ إذاقتَهُ الرّحمةَ، ثمَّ نزعَها منه سببٌ لأنْ يكونَ يؤوسًا كفورًا، فَسَبَبُ وقوعِ شدّةِ اليأسِ جزاءً للشّرطِ، هو أنَّ الكافرَ لا يعزو حصولَ النّعمةِ إلى اللّه تعالى، بل يَعتَقِدُ أنَّ السَّبَبَ في حُصولِ تلكَ النِّعمَةِ سَبَبٌ اتِّفاقِيٌّ، ولمّا كانَ الأمرُ كذلكَ، فإنَّهُ يَستَبعِدُ حُدُوثَ ذَلِكَ الاتِّفاقِ مرَّةً أُخرى، فلا جَرَمَ يَستَبعِدُ عَودَ تلكَ النِّعمَةِ فَيَقَعُ في اليَأسِ، فكانَت إذاقةُ الرّحمةِ، ثمّ نزعُها منه، سببًا في أن يكونَ يؤوسًا، وأمّا المُسلِمُ الَّذي يَعتَقِدُ أنَّ تلكَ النِّعمَةَ إنَّما حَصَلَت مِنَ اللّه تعالى وفَضلِهِ وإحسانِهِ وَطَوْلِهِ فإنَّهُ لا يَحصُلُ لَهُ اليَأسُ، بَل يَقولُ لَعَلَّهُ تعالى يَرُدُّها إليَّ بَعدَ ذلكَ أكمَلَ وأحسَنَ وأفضَلَ ممّا كانَت. كما أنَّ سببَ وقوعِ وصفِ ﴿كَفُورٞ﴾ جزاءً للشّرطِ؛ هو أنَّهُ لَمّا اعتَقَدَ أنَّ حُصولَها إنَّما كانَ على سَبيلِ الاتِّفاقِ أو بسَبَبِ أنَّ الإنسانَ حَصَّلَها بِسَبَبِ جِدِّهِ وَجُهدِهِ، فَحينَئِذٍ لا يَشتغِلُ بِشكرِ اللّه تعالى على تِلكَ النِّعمَةِ، فالحاصِلُ أنَّ الكافرَ يكونُ عندَ زوالِ تلكَ النّعمةِ يؤوسًا، وعِندَ حُصولِها يَكونُ كَفورًا[2].

الكـافِـرُ لايعـزو حصولَ النّعمةِ إلى اللهِ تعالى، بل يَعتَقِدُ أنَّها أمرٌ اتِّفاقِيٌّ

براعةُ التّعبيرِ بالوصفَين ﴿لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾:

لمّا كانَ معنى الوصفين أنّه شديدُ القُنوطِ مِن رَوحِ اللّه، قَطوعٌ

الكافرُ يجمعُ بينَ اليأسِ مما نُزِعَ منهُ، والكفرِ بما بَقِيَ لهُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/190.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/323.

رجاءَهُ مِن عَودِ أمثالِ تلك النّعمةِ المسلوبةِ من غيرِ صبرٍ، ولا تسليم لِقضائِهِ، ولا استرجاعٍ، وأنَّه كَفُورٌ عظيمُ الكفرانِ لِما سَلَفَ لهُ مِنَ التَّقلُّبِ في نعمةِ اللّه، نَسّاءٌ له؛ كانَ الجمعُ بينَ الوصفين؛ لِلإشعارِ بأنَّه يجمعُ بينَ كثرةِ اليأسِ بعودةِ ما نُزِعَ منهُ، وشدّةِ الكفرِ بما بَقي لهُ، كما أنَّ إيرادَ اللّفظين بصيغةِ المبالغةِ إيذانٌ بأنَّ الوصفَين صارا لازمَين له مع شدّتِهما وكثرتِهما، فيفيدُ أنَّه ﴿لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾ عاجِلًا وآجِلًا، لِحرمانِهِ مِن فضيلتي الصّبرِ والشّكرِ، ففي الجمعِ بينَ الوَصفين توبيخٌ شديدٌ[1].

مناسبةُ تقديمِ ﴿لَيَـُٔوسٞ﴾ على ﴿كَفُورٞ﴾:

فيه إشارةٌ إلى أنّ اليأسَ أشدُّ قُبحًا مِنَ الكفرانِ، لقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف: 87]، وأنّه صارَ كفورًا؛ لأنَّه كانَ يرى نزعَ الرّحمةِ منه جَورًا وظلمًا، فبكثرةِ يأسِهِ من نزعِ الرّحمةِ صارَ كفورًا،. وفي التّقديمِ إشعارٌ بأنَّ النّزعَ إنّما كانَ بسببِ كُفرانِهم بما كانوا يَتقلَّبونَ فيهِ مِن نعمِ اللّه ﷻ، وتأخيرُهُ عن وصفِ يأسِهم - مَعَ تَقَدُّمِهِ عليهِ - لرعايةِ الفواصلِ، على أنّ اليأسَ مِن فضلِ اللّه سبحانَهُ، وقَطْعَ الرَّجاءِ عن إضافةِ أمثالِهِ في العاجلِ، وإيصالِ أجرِهِ في الآجلِ مِن بابِ الكُفرانِ لِلنّعمةِ السَّالفةِ أيضًا[2].

اليأسُ أشدُّ قُبحًا مِن كفرِ النّعمةِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّحمةُ والنِّعمةُ:

الرَّحمَةُ هي الإحسانُ على المُحتاجِ إليهِ على وجهِ التَّفضُّلِ، بمعنى ظهورِ الفضلِ، ولا تكونُ إلّا خيرًا، وأمّا النِّعمةُ فقد لا تكونُ لِمَن يحتاجُ

الرَّحمَةُ إحسانٌ وتفضُّلٌ، وهي نقيضُ العذابِ، والنّعمةُ نقيضُ الحرمانِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/381، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/190، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/8.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/103، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/190.

إليها، وقد تكونُ خيرًا، وقد تكونُ استدراجًا، كما أنّ النّعمةَ قد تكونُ ظاهرةً، وقد تكونُ خفيَّةً.

والرّحمةُ نقيضُ العذابِ، والنّعمةُ نقيضُ الحرمانِ، فالرّحمةُ لَيسَت كالنِّعمَةِ؛ لأنَّك إذا أنعَمتَ بِمالٍ على إنسانٍ، وتعطيه إيّاهُ، فقد أنعَمتَ، وَلا تَقولُ: إنَّك رَحمتَهُ[1].

اليأسُ والقنوطُ:

اليأسُ اعتِقادُ عدمِ حُصُولِ المَيْؤوسِ مِنه

القنُوطُ أشدُّ مُبالغَةً مِنَ اليَأسِ، ولمّا كانَ اليَأسُ فِعلًا قَلبيًّا، وهو اعتِقادُ عدمِ حُصُولِ المَيْؤوسِ مِنه، وكانَ انفِعالًا بَدَنِيًّا مِن أثَرِ اليَأسِ، بحيثُ تظهرُ آثارُ الانكسارِ والتَّضاؤلِ في الأحوالِ الظّاهرةِ، كانَ القُنوطُ تابعًا لِليأسِ[2].

القنوطُ قطعُ الأملِ مِنَ الأمرِ بالكلّيّةِ

الكفرُ والجَحْدُ:

كفرُ النِّعمةِ سترُها وإخفاؤُها بتركِ أداءِ شكرِها والقيامِ بحقِّها

كفرُ النِّعمةِ: سترُها أو إخفاؤُها بتركِ أداءِ شكرِها والقيامِ بحقِّها، والجَحْدُ: هو نفيُ ما في القلبِ إثباتُهُ[3]، فجحودُ النِّعمةِ بمعنى أن يكونَ عالمًا بِمَن أوْلاها وأسْداها، ولا يُقِرُّ بلسانِه بذلك، فعَبَّرَ بِكَفورٍ؛ لأنّهُم يَسترونَها ويُخفونَها.

الجحودُ إنكارُ وجودِها بتاتًا

النّزعُ والسّلبُ:

النّزعُ قلعُ الشّيءِ من محلِّهِ

النّزعُ: نَزَعَ الشّيءَ: جَذَبَهُ من مَقرِّهِ كَنَزعِ القوسِ عن كبدِهِ، ويُستعمَلُ ذلك في الأعراضِ، ومنه: نَزعُ العَداوةِ والمَحبَّةِ مِنَ القلبِ، قالَ تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾ [الأعراف: 43]، ومنه قولُهُ: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ [القمر: 20]، قِيلَ: تَقلعُ النّاسَ من مَقرِّهِم لِشدَّةِ هُبوبِها[4].

السّلبُ: نزعُ الشّيءِ مِنَ الغيرِ على القَهرِ

والسّلبُ: نَزعُ الشّيءِ مِنَ الغيرِ على القَهرِ قالَ تعالى: ﴿وَإِن

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 195.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 245، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 27/572، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/11.

(3) الرّاغب، المفردات: (جحد)، (كفر).

(4) الرّاغب، المفردات: (نزع).

﴿يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾ [الحجّ: 73]، والسَّلِيبُ: الرَّجلُ المَسلوبُ[1]. وقد أوردَ لفظَ النّزعِ دونَ السّلبِ، فلم يقُل: (ثمَّ سلبناها منه)؛ لأنَّ السّلبَ هو أخذُ الشَّيءِ بِخِفَّةٍ واختِطافٍ على جهةِ القهرِ، ومنه: الرَّجلُ المَسلوبُ، والسَّلبُ يكونُ فيما ظَهَرَ، ولهذا قِيلَ: كُلُّ شيءٍ على الإنسانِ مِنَ اللّباسِ فهو سَلَبٌ، ويُقالُ لِلحَاءِ الشّجرِ المنزوعِ منهُ سَلَبٌ، ومنه: سَلَبَ القَصَبَةَ والشَّجَرَة: قَشَّرَها، ولهذا عُبِّرَ بالسَّلبِ مع الذُّبابِ، فقالَ اللّه تعالى: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾ [الحجّ: 73]؛ لخفَّةِ الذُّبابِ في السَّلبِ، ولأنَّه يَختطِفُ الشّيءَ اختِطافًا.

وأمّا لفظُ النّزعِ فإنّه لا يكونُ إلّا فيما قَوِيَ ثباتُهُ، فيكونُ معه القلعُ والجذبُ بقوّةٍ، وهو المُطابقُ للإذاقةِ ليكونَ أقضى لحقِّ البلاغةِ، فكانَ إيرادُ لفظ النّزعِ؛ للإشعارِ بشدّةِ تعلُّقِهِ بالرّحمةِ وشدَّةِ حرصِهِ عليها، فكأنَّ الرّحمةَ تُقلَعُ منه قلعًا حينَ تُؤخَذُ منهُ؛ لِشدَّةِ تمسُّكِهِ بها مع أنَّه لم يَحْصُلْ منها إلّا الذَّوقُ الّذي هو أقلُّ ما يُوجدُ بهِ الطَّعمُ[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (سلب).

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/190، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/30.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 20 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-17-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 20 : المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-17-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6073958 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»